للائتلاف مع الرجال الا بخديعتهم وتزوير المقال لهم ارادة ان يتخلصن من اللوم او الطلاق في كل حالة من حالاتهن تقريباً. واما سائرهن ممن رزقن افهاماً سامية وربين في المدارس ودور المجد فانهن لا يكن كذلك الا في الكذب الذي لا يؤذي وهو ما تسوق اليه البطالة والكسل وكثرة اللهو وذلك ما لا بد ان يقل كثيراً حين ينالن الحرية التامة ويكون لهن من الاعمال ما يقربن به شيئاً من الرجال لان البطالة من الشيطان كما يقول المثل وليس الشيطان الا الكذب مجسماً او مصوراً وهو رأس المعاصي وقد اندرج في طيه كل رذائل النفس ومكروهاتها

واما التحامل الذي بدا من قوله وهو يقصد به الرجال فانه لا ينافي الواقع ولكنه يحسب تحاملا من حيث ان اكثر رجال اوربا كذلك وليس الشرقيون المخصوصين به دونهم واذا كان اهل اوروبا لا يعدون الكذب في القول فضيلة ظاهرة فهي معتبرة عندهم فضيلة باطنة يجرون عليها ثم يتبرأون منها والذي يشاهد مصنوعاتهم المموهة وما يبدونه من الحيل والخدع واساليب الرياء في جر النفع الى نفوسهم واجازة اكاذيبهم على بسطاء الشعوب يتحقق له ان نتيجة الكذب عندهم تجيء باشد من نتائجه عندنا لان الكذب يتبع العلم في قوته فاذا شاء العالم ان يكذب كان اكثر تفنناً واشد اقتداراً . الا ان ما وصفنا به الرجل صادق من بعض الوجوه كيف كان بيانه واسلوبه ولهذا يجب علينا جميعاً ان نعود نفوسنا الصدق في اكثر الاقوال والاعمال على قدر الاحتمال لان اوربا مهما تمادى بها النقص في بعض الحالات فان لها من اكتمال الفضل اجل شفيع يرد عنها العيوب واما نحن فليس لنا من ذلك شيء بل انه اذا اشتهر عنا شيء فقد لا يكون الا الذنوب

الاحتيال على السرور

لو قلت لانسان انك لو قضيت اوقاتك ناعم البال مستريح الضمير وادع النفس فانك تستطيع ان تحوز اكثر اسباب المسرة ولو كان ظاهر حالك يدل على غير ذلك . انك لو قلت له هذا القول لهزأ بك وازرى بما تقول ولادعى لك في الحال ان المسرة وان تكن تجيء من النفس وهي الواسطة لها فانها لا تأتي اليها الا بحيلة خارجة عنها ومن المحال ان تكون الحيلة على المسرة مفقودة والمسرة ذاتها موجودة

الا ان هذا الرد وان يكن مقبولا على ظاهره فانه مما لا يعد صحيحاً كل الصحة لان بعضاً من هذا الناس تجدهم مسرورين مع انك تنقب عن حيل السرور المعروفة فلا تراها موجودة لديهم وانما هم يسرون لانهم يخلقون الحيل خلقة فتكون نفوسهم ووسائط سرورهم كانها سواء اي انهم يحتالون على اسباب السرور فيكون نفس احتيالهم سروراً ولكن لا يفوتهم من اجل ادراك هذه الغاية الا الارادة والعزم الاكيد على ان يكونوا مسرورين فيسروا . وهذا الخلق وان عده البعض بعيداً لمدافعة النفس له فان البعض لا يعدونه كذلك بل هم يعتبرون ان التعود يستطيع ان يوجدلهم هذا الخلق لان العادة تصير من الطبائع الاصلية ولا تكون دخيلة عليها كما هو الشائع بين الجمهور ومن اجل هذا اوصى الانبياء واولو الحكمة بعدم الاهتمام بالغد وترك المقادير المغيبة تجري على مشيئاتها دون ادنى اعتبار لصروف الزمان او اعتداد بان عوادي الدهر واحزانه هي مما يوجب حقيقة

الاسى لان الاسى في عرفهم هو مما تبعثه النفس عن طوع منها واختيار وليس الانقياد الذي يشاهد للحزن الا ضعف نفس وخور عزيمة وهو ما يمكن ان يرتد الى نقيضه بالمغالبة والمدافعة حتى لا تكون الا المسرة على قدر الامكان لان المرء على موجب الحكم الحقيقي قد خلق ليكون سعيداً

ولقد اثبتت احدى الصحف فصلا وجيزاً عن هذا الشأن يؤخذ من معناه ان الانسان الذي يحتال على ادناء المسرة اليه احتيالا يشاهد في الظاهر كاذباً ثم يكون حقيقياً في نفس صاحبه لا يبعد عليه ان يصبح مسروراً حقيقة السرور بالقياس الى الذي كان يشاهده ويظن ان احتياله كاذب وذلك لان المرء متى عود نفسه المسرة من عرفانه حقيقة وجوده وتيقنه بان كل ما يفوته من اللهو انما هو فائت لا يعود كفوت العمر فانه عند ذلك تنبسط امامه وجوه الخير الشامل وتنفسح لديه سبل السرور الاكيد فيغدو ناجحاً في اكثر اعماله لان عقله يكون طليقاً جائلا مميزاً وجوه المنافع وحالات الغبطة والنعيم . على خلاف اليائس المستكين المستسلم لعوادي الدهر والناظر بوجل شديد الى ما يجيء به الغد من البؤس كانه واقع عليه لا محالة فانه على حاله تلك يكون شقياً دون ريب ثم يكون مسبباً لزيادة شقائه ونكده لان نفسه المنخبسة تسد على بصيرته سبل المسرة التي كان يطلبها وهو حزين وهي تشتد بعداً كلما اشتد حزناً وبذلك يتضاعف بلاؤه وتكون نفسه كانها عادية من عوادي الزمن قد حلت به دون ان يكون لهذا من سبب اكيد الا انه اراد ان يشقى فشقي وان غيره اراد ان يسر فسر

ولقد يمتنع على الكثيرين تسبيب السرور لنفوسهم باعتبار انهم يريدون منه مقداراً وهو لا يأتي الا بالمقدار الذي لا يريدون فكأنهم بذلك يحسبون

ان ما ورد ليس بسرور لانه ناقص المقدار ولكن المرء لو الزم نفسه الزاماً في بداية الامر لقبول كل ما يرد على مقداره لوجد حين قبوله ذلك المقدار انه هو كل المقدار الذي يريده لان النفس ساعتئذ تتمادى في سرورها ويتضاعف جذلها حتى تمرن على هذا الخلق تمريناً فتغدو راضية بادنى ما يسر في الظاهر ثم تمعن في ذلك بالتدريج حتى لا يعود المكروه لديها بالمكروه الذي كان من قبل

ثم ان طبيعة الوجود نفسها لا تسمح للشقاء بان يكون بحتاً خالصاً لا مخرج منه الى السرور بل ان كل حالة في الدنيا لها طرفان من بؤس ونعيم وانما يقوى احدهما على الاخر او يمحو اولهما الثاني بارادة الانسان وعزمه فهو متى اصيب بشقاء وهو احدى الناحيتين ثم توهمه انه كل النواحي فان توهمه ذلك يكون عين الشقاء الذي لا مخرج منه ولكن لو كانت له نفس قد مرنت او اعتادت ان تترقب الناحية الاخرى وتعتقد بوجودها لهان الشقاء كثيراً او لتحول الى عزاء يكون هو نفس المسرة . والدليل على ذلك مشاهد من النفس التي لا ترى الا ناحية الشقاء الواحدة فان المرء الذي تكون له تلك النفس القاصرة الضعيفة ياتي اليه غيره من الناس فيهون عليه خطبه ويوسع له دائرة نفسه حتى يريها سائر النواحي وعند ذلك يتعزى ويسر مع انه لم يبعد له سبباً اكيداً من اسباب الشقاء الذي كان محيقاً به ولا ادنى له مسرة واضحة كانت نائية عنه وانما هو قد حمل له نفسه على الرضى حملا فرضيت وسرت مع انه لو تولى بنفسه لنفسه تلك الواسطة لكانت النتيجة واحدة

ولقد يظن البعض ان هذه الاخلاق المنبسطة الفسيحة انما تولد مع المرء وتنشأ واياه حين ينشأ اما من موهبة طبيعية او وراثة ابوية ولكن

الحقيقة ان كل هذا انما هو تمرين وتعويد لان المرء الذي ينشأ سفاكا للدماء محباً للعدوان ميالا الى البدع الساقطة والاراء الذميمة لا يكون مولوداً على هذا الخلق ولا ورثه ارثاً وانما هو يلقن منه شيئاً ثم يحمل عليه نفسه حملا حتى يصير فيه سجية وطبعاً فلو عكس الانسان هذا الاسلوب في حياته فمرّن نفسه على احتمال المصائب وعودها ان لا ترى الشقاء كما يرى في حاله المألوفة لوجد نفسه عائشاً على اتم السعة والرغد مهما كان فقيراً معسراً في الظاهر واذا اعتبر البعض ان من يكون على هذه الصفة وتستطيع نفسه ان تمرّن على هذا الخلق انه يكون مجنوناً فان الذي لا يمرنها كذلك ويقعد شقياً في يومه مترقباً لشقاء غده انه لاشد جنوناً

اوبئة المال

لكل موجود في هذه الدنيا وباء يتسلط عليه ويختص باجتياحه واتلافه كلما كثر ونما كما هو الشأن في الانسان وسائر الحيوان فانه كلما كثر نوع من انواعه وتجمع في مكان واحد بدا له من بينه وباء مجتاح جارف يقوض بنيانه ويشتت مجموعه حتى كان ذلك سنة من سنن الخليقة لاتصاب بتغيير ولا تبديل

ولقد كان المال كأنه نوع من هذه الانواع الحية فهو كلما نما وعظم في خزانة جاءه من لدن القضاء وباء يبيده ويسرف في تفريقه وافنائه وذلك اما ان يكون بتجارة يحمل صاحب المال عليها فيخسر امواله بها او بمقامرة تتسلط عليه فتكون طاعوناً لا يبقي على ماله ولا يذر او بامثال ذلك من اوبئة المال

التي تدب جراثيمها الى خزائن الاغنياء حتى لا تبقي فيها ولا تذر وهي كلها من الطف ما قدره الله من مهلكات الاموال ولولاها لجمدت الخزائن بما فيها وجمدت فوقها الاكف حتى لا يفلت منها درهم ولا تظفر مقبرة فقير منها بميت

اما اوبئة المال فمختلفة كاختلاف اوبئة الانسان ولكن اجل ما يود ان ينتشر منها ويبيد احياء الخزائن هو وباء الاسعاف والاحسان على الناس فيما ينفعهم وذلك وباء قد اختصت به اكياس المستر كارنيجي المثري الاميركي الشهير فان جراثيمه قد علقت بكفه حتى لا ينفع فيها تلقيح ولا علاج كما انها قد لزمته على الدوام حتى لا تموت الا بموته وقد لا تموت اذا اقام من بعده من يستنبت تلك الجراثيم ويولدها على الدوام وعلى هذا فان ذاك المرض يبيد من امواله ثلاثة ملايين جنيه كل عام توزع على مكاتب اميركا وانكلترا ومدارسهما . وقد بلغ ما باد منها للان ستة ملايين جنيه وسيدوم موتها على هذا القياس ما دام الرجل حياً وليس لطاعون امواله مصل شاف

على ان كارنيجي لم يختص وحده بذاك الوباء ولا كانت خزانته بالبلاد الوحيدة التي وجدت تلك الجراثيم مسرحاً فيها بل لقد وصلت عدواه الى رجل من سراة الانكليز مشهور بتجارة القطن وهو المستر سيبلر ولكن داء خزانته كان الطف وقعاً على اموالها لانه يبيد منها في العام مئة الف جنيه تموت كلها في سبيل حياة الاطفال والاولاد الفقراء مع انه لا يموت منها في سبيل حياته نفسه الا ما لا يكاد يذكر ولهذا كان داؤه ابصر بطرق موت الذهب من داء كارنيجي لذي لا هم له الا احياء العلوم ونشر المكاتب وهي لو اعتبرت لدى الحقيقة والنتيجة لعدت من جملة اسباب الشقاء لانه يوسع بها